



التَّحْقِيقُ وَالْحَضَارَةُ

فِي

التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ

• د. علي أحمد مذكور •



منذ ذلك القصاص الكد بين الدين والحياة في بداية النهضة الأوروبية الحديثة، ومع توالي القيم الإنسانية والحلقية رويداً رويداً لحساب النافع والمصالح المادية ... منذ ذلك الوقت والعالم يعيش عصراً رديئاً، تسحق فيه «إنسانية» الإنسان، وتعلو قيمة كل شيء على قيمته. ولم يحل التقدم العلمي الهائل وتطبيقاته التقنية التي لا حدود لها دون ذلك، بل العكس هو ما حدث وما يحدث إلى الآن .. لكن ما علاقة هذا بالثقافة والحضارة في التصور الإسلامي وفي غيره من المذاهب المعاصرة ؟

إن عالم اليوم يشهد أعمالاً بالغة العنف والبشاعة والقسوة، وهي وإن اختلفت في أشكالها وألوانها من حروب مدمرة، وقتل للأبرياء، وغزو للأراضي بالقوة، وحرق للمؤسسات، وتدمير عشوائي للأحياء وساكبتها، ونسف للسكان ... الخ هذه كلها تعود لنفس الأسباب : النزاعات الطائفية والعرقية، والتعصب القومي، والولاء الأقليمي، وما يترتب على ذلك من رغبة في الاحتكار والاستغلال، ونزعة إلى الهيمنة وفرض السيطرة على الآخرين .. لكن ما علاقة كل هذا بمفهوم الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي وفي غيره من الفلسفات والنظريات ؟

إن غياب وحدة الأسرة «المتخصصة»، وتخلي المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الناشئة، وإفراغ طاقها في «الإنتاج المادي» و «صناعة الأدوات» على حساب «صناعة الإنسان» .. كل ذلك قد أدى إلى غياب البيئة الصالحة التي تنشأ وتُشَمَّى فيها القيم والأخلاق «الإنسانية» - التي تتمثل في الجيل الجديد - والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة «المتخصصة» .. والنتيجة أجيال من الشباب الضائع الحائر الذي يفتقر إلى الحب والحنان والولاء والانتباه، اللهم إلا إلى عصابات القتل، والاعتصاب، والانتحار، بالهيبوروين أو بالإيدز، أو بغيرهما .. لكن ما علاقة هذا بالثقافة والحضارة في التصور الإسلامي .. وفي غيره ؟

إن غياب المعيار الإلهي الثابت لقيم الحرية، والعدالة والعلم، والمعرفة، والعمل، .. إلخ قد أدى إلى ما يمكن أن يسمى بـ «غرور القوة»، وما يستتبع ذلك من محاولات فرض الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعوب مادياً ومعنوياً .. بقوة السلاح، أو بقوة التأمر الثقافي أو بهما معاً .. لكن ما علاقة هذا بمفهوم الثقافة والحضارة ومقوماتهما في التصور الإسلامي وفي غيره ؟

إن الإجابة عن التساؤلات السابقة وغيرها ستتضح - إن شاء الله - من خلال العرض التالي لمفهوم كل من الثقافة والحضارة ومقوماتهما في التصور الإسلامي، ومقارنتهما بالثقافات أو «الحضارات» المعاصرة.

• الثقافة في التصور الإسلامي •

أصول الثقافة في التصور الإسلامي :

تقوم الثقافة في التصور الإسلامي على قاعدة أساسية هي إفراد الله - سبحانه وتعالى - بالعبودية، ومن ثم إفراده بالحاكمية. وإفراد الله بالعبودية يتمثل في اتخاذ الله وحده إلهاً. وإفراده - سبحانه - بالحاكمية يعني تحكيم شريعة الله في كل مجالات الحياة.

وانطلاقاً من هذه القاعدة، فإن الثقافة في التصور الإسلامي ذات شقين : الأول : الشق المعياري، ويتمثل في شريعة الله، أي : كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والثاني : الشق التطبيقي ويتمثل في التطبيق العملي الواقعي الصحيح للشق المعياري.

إذن، فالشق المعياري يتمثل في شريعة الله، وشريعة الله تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية. وأهم ما يمثل هذا الجانب - كما يقول الأستاذ سيد قطب - ما يلي :

١ - أصول الاعتقاد : كتصور حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون : غيبه وشهوده، وحقيقة

الحياة : غيبها وشهودها، وحقيقة الإنسان، والارتباطات بين هذه الحقائق كلها، وتعامل الإنسان معها كلها.

٢ - أصول الحكم : ويمثل في الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأصول التي تقوم عليها، لتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده. كما تتمثل في التشريعات القانونية التي تنظم هذه الأوضاع.

٣ - أصول الأخلاق والسلوك : وتمثل في المعايير والقيم والموازين التي تسود المجتمع، ويقوم بها الأشخاص، وتؤدي بها الأعمال في الحياة الاجتماعية من جميع جوانبها.

٤ - أصول المعرفة : وتمثل في أصول العلم، وفي أصول النشاط الفكري، والتربوي، والفني، والأدبي، جملة وتفصيلاً.^(١)

هذه هي مكونات الشريعة الإسلامية على الإجمال . والشريعة الإسلامية بمكوناتها هذه تمثل الشق المعياري للثقافة في التصور الإسلامي. ومعنى أن هذا الشق «معياري» أن كل ما عداه - من المناهج والنظم والتشريعات والقوانين وأنماط السلوك : الفكري والقبلي والعمل - الفردي والجمعي - يقاس عليه، لكنه هو لا يقاس على شيء من خارج ذاته. وما ذلك إلا لأنه شق رباني، ثابت، لا يمكن التلقي فيه إلا عن الله.

أما الشق الآخر للثقافة في التصور الإسلامي، فهو الشق التطبيقي، أي التطبيق العملي الواقعي في الحياة للشق المعياري ومعنى آخر، هو كل أنماط الشعور، والتفكير، والقبول، والعمل، والسلوك، التي تأتي تطبيقاً عملياً واقعياً صحيحاً للجانب المعياري.

وعلى هذا، فإن كل المبادئ والقوانين والتشريعات التي تتناقض مع قوانين الشريعة الإسلامية في مصدرها أو في غايتها، لا تعتبر جزءاً من الثقافة الإسلامية. وكل التطبيقات والممارسات التابعة لها لا تدخل في مضمون الثقافة الإسلامية. وكل القوانين والعادات والتقاليد وأنماط التفكير والسلوك والعمل التي تشيع في المجتمعات الإسلامية، لكنها تختلف، أو تتناقض مع مبادئ وقوانين الشريعة، لا تعتبر من مكونات الثقافة الإسلامية، ولا تمت لها بأية صلة. بل إن هذه القوانين والعادات والتقاليد تعد من عوامل محاربة هذه الثقافة.

مفهوم الثقافة في النصور الإسلامي :

وبناءً على ما سبق يمكن تعريف الثقافة في النصور الإسلامي بأنها شريعة الله الشاملة لأصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول المعرفة، وأصول الأخلاق والسلوك، وكل التشريعات والنظم والقوانين التي تخضع لها، وجميع أشكال التطبيق العملي الواقعي، وأنماط السلوك الفردي والجمعي، التي تتسق معها نصاً وروحاً.

خصائص الثقافة في النصور الإسلامي :

والثقافة الإسلامية بهذا المفهوم، هي ثقافة ربانية، تعتمد على الشريعة المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وهي من هذا المنطلق ثقافة عالمية إنسانية، لا تحدها الحدود الجغرافية أو الخرائط السياسية، أو تخوم الأرض، وإنما حدودها هي حدود فكرتها. فالإنسان المسلم والجماعة المسلمة يجب أن تمارس حياتها، وأن توجه حركتها ونشاطها وفقاً لمنهج الله، في كل مكان، وفي كل زمان.

. إن الجانب المعياري في هذه الثقافة، وهو جانب الشريعة، جانب إلهي ثابت، يصف ما يجب أن تكون عليه الحياة على الأرض؛ بمن عليها وما عليها؛ ولذلك فهو جانب مطلق ومُلزم. أما جانبها التطبيقي العملي، فهو لازم لزوماً حتمياً للجانب المعياري، وإن تغيرت صورته وأشكاله - وهي لا بد أن تتغير - بتغير الزمان والمكان، ولكن في ضوء الموجهات المعيارية، وفي نطاق محورها.

والثقافة الإسلامية - بالمفهوم السابق وبالإضافة إلى ما سبق - تؤكد الصلة الدائمة بين المسلم وربه؛ وذلك من خلال تفرسه بها يومياً. وهي ثقافة عابدة؛ لأنها تجعل الإنسان يفرّد ربه بالعبودية، ويخصه وحده بالحاكمية. ولأنها ثقافة عابدة تفرّد الله بالعبودية، ومن ثم، بالحاكمية، فهي ثقافة حرة؛ لأنها تحرّر الإنسان من العبودية لغير الله تعالى.

وهي أيضاً ثقافة عادلة، حيث إنها ربانية وعالمية وليست قومية ولا محلية ولا إقليمية، ومن ثم - فهي تكره الاحتكار والاستغلال والظلم في كل زمان، وفي كل مكان، وفي جميع أنماط السلوك الإنساني، حتى لو كان هذا السلوك صادراً من الأنبياء : ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٣٨)، وحتى لو كان مع

الأعداء : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خير بما تعملون﴾ (المائدة : ٨)

وهي ثقافة متعادلة : فيها التوازن بين ما يدركه الإنسان فيسلم به، وبين ما يتلقاه، فيبحث عن علله وبراهينه وغاياته، ويفكر في مقتضياته العملية، وتطبيقاته في حياته الواقعية. وفيها التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية، وثبات السنن الكونية. وفيها التوازن بين مجال المشيئة الإلهية التطبيقية، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة. وفيها التوازن بين عبودية الإنسان المطلقة لله، وبين مقام الإنسان الكريم في الكون. وفيها التوازن في مصادر المعرفة بين التلقي من الوحي والنص، والتلقي من الكون والحياة، وفيها التوازن بين حاجات الإنسان الروحية وبين حاجاته المادية والاجتماعية.^(٢)

يقول الأستاذ محمد أسد : إن الثقافة التي لا تستطيع أن تقيم توازناً بين حاجات الإنسان الجسمية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية، لا تستطيع - مهما بلغت من تقدم - أن تغلب على استعداد الإنسان الأحق للسقوط فريسة لأي هتاف عدائي، أو نداء للحرب. وإذا فقدت الثقافة توازنها، فإنها تصبح صورة قاسية من صور القلق والحيرة الذهنية، والتمزق النفسي، وفقدان الهدف الحقيقي للحياة.^(٣)

والثقافة الإسلامية بهذا المفهوم وبهذه الخصائص، تختلف في مصدرها وفي غايتها عن الثقافات البشرية الأخرى اختلافاً يَبِينُ. فالثقافات البشرية عموماً، والغربية منها على وجه الخصوص، تُعرَّف لدى بعض علماء الغرب بأنها «الأسلوب الكلي لحياة الجماعة». وهذا التعريف للثقافة يشمل جميع أنماط التفكير والعمل والسلوك المعرفي والوجداني والحركي. فطريقة تفكير الجماعة، وطريقتهم في العمل، وأساليبهم في التعليم والتعلم، وطرقهم في التعامل، ومعتقداتهم وقيمهم ونظمهم وحتى الطرق التي يأكلون ويشربون بها، والكيفية التي يعيش الناس بها في الطرقات أو يقودون بها سياراتهم ... إلى آخره - كل هذه أنماط ثقافية، تختلف باختلاف المجتمعات، وباختلاف الفلسفات والنظريات التي تغذي هذه الثقافات، وتوجه أنماط السلوك فيها.

وهذه الثقافات وصفية؛ أي أنها تصف الأسلوب الكلي لحياة الجماعة في زمن معين. وهي متغيرة في جانبها : الاعتقادي الفلسفي، والسلوكي الواقعي، ولكن مع اختلاف في النسبة فقط. وليس هناك التزام مطلق بين الجانبين وهي تحكم بشرتها في المصدر، قومية وإقليمية

وشعبية. كما أنها ثقافات مفروضة؛ حيث إن القوى أو الطبقات الاجتماعية القوية، هي التي تنجح في فرض ثقافتها عن طريق وسائل الإعلام والإعلان، والشاهج التربوية، والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تشرع للمجتمع، وتنظم حركة نشاطه.

والجدول القادم يعقد موازنة موجزة بين خصائص الثقافة الإسلامية، وخصائص الثقافات الأخرى :

خصائص الثقافات الأخرى	خصائص الثقافة الإسلامية
١ - بشرية : مصدرها الفلسفات والنظريات الوضعية.	١ - ربانية : مصدرها القرآن والسنة
٢ - قومية، وإقليمية، وشعبية ^(٤)	٢ - عالمية، وإنسانية
٣ - جانبا المعاري متغير نسبياً. وجانبا التطبيقي متغير دائماً، وغير ملتزم التزاماً كلياً أو مطلقاً بالجانبا المعاري.	٣ - جانبا المعاري ثابت. وجانبا التطبيقي الوافي لازم لزوماً مطلقاً للجانبا المعاري، وإن تغيرت صور هذا الجانبا التطبيقي وأشكاله.
٤ - لا أحد لتغير الأشكال والصور الثقافية، مع غياب المعايير والقيم الإنسانية التي توجيها.	٤ - يجب أن تغير وتتطور الأشكال والصور الثقافية، ولكن في ضوء الوجهات المعيارية وحول محورها.
٥ - لِعَبْدُ العباد للعباد.	٥ - تعقد الصلة الدائمة بين الإنسان وربه، فيفرد الإنسان ربه بالعبودية ومن ثم، بالحاكمة.
٦ - ثقافات مفروضة بواسطة الطبقات أو الجماعات المسيطرة اقتصادياً وسياسياً.	٦ - ثقافة حرة؛ حيث إنها تحور الإنسان من العبودية لغير الله.
٧ - تضطد التوازن.	٧ - ثقافة متوازنة : فيها توازن بين الغيب والشهادة، وبين الروح والمادة.
٨ - لأنها ثقافة بشرية، فهي قومية وشعبية، تقوم على الاحتكار والاستغلال والظلم.	٨ - ثقافة عادلة، حيث إنها ثقافة ربانية وعالمية، ليست قومية ولا إقليمية، فهي تكره الاحتكار والاستغلال والظلم في كل زمان وفي كل مكان، وفي جميع أنحاط السلوك.

أسس التغير الثقافي في الإسلام :

يقوم التصور الإسلامي السابق للثقافة على أساسين هامين : الأساس الأول أن الثقافة ليست تراثاً إنسانياً لا وطن له ولا جنس ولا دين، إلا فيما يتعلق بالعلوم البحتة^(*) وتطبيقاتها العملية فقط، ودون تجاوز هذه المنطقة من المعرفة إلى التفسيرات الفلسفية لنتائج هذه العلوم، ولا إلى التفسيرات الفلسفية للإنسان ونشاطه وتاريخه، ولا إلى الفنون والآداب والتعبيرات الشعرية جميعاً.

والأساس الثاني لتصور الإسلام للثقافة - كما يقول الأستاذ سيد قطب - «هو عدم فصل العلم عن صاحبه فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمقومات التصور، المؤثرة في نظرة الإنسان إلى الوجود، والحياة، والنشاط الإنساني، والأوضاع، والقيم، والموازين، والتقاليد، والعادات، وسائر ما يتعلق بحياة الكائن الإنساني من هذه النواحي...»^(٦)

إن الإسلام يعتبر - فيما عدا العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية - أن هناك نوعين من الثقافة . الثقافة الإسلامية، القائمة على أساس التصور الإسلامي - كما سبق أن بينا - والثقافة البشرية القائمة على أساس فلسفات ومناهج شتى، ترجع كلها إلى قاعدة واحدة، ومصدر واحد، هو العقل البشري، والفكر البشري، الذي لا يخلع في حكمه إلى ميزان الله.

فما موقف الإسلام - إذن - من تأثير الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى ؟ لقد بنى الإسلام موقفه فيما يتصل بالتأثير الثقافي والتغير الثقافي على الأساسين السابقين.

فالتغير الثقافي قد ينبع من داخل الثقافة نفسها، وقد يكون وافداً عليها من خارجها. فإذا كان التغير نابعاً من داخل الثقافة، وموجهاً بمعاييرها فإنه لا توجد مشكلة. لكن المشكلة توجد عندما يكون التغير وافداً عليها من خارجها. وهنا نجد أن الثقافة الإسلامية تقبل المتغيرات المتصلة بالعلوم والمعارف البحتة والتطبيقات المتصلة بها الوافدة من الخارج، مع الحذر مما يكون قد علق بها من التفسيرات الفلسفية.

إن الثقافة الإسلامية : ثقافة ربانية، وهي - لذلك - إنسانية، وعالمية، فيها ما يستوعب النشاط البشري كله؛ لأن فيها من المناهج والقواعد والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته. ولقد ساد المسلمون، وكانوا أساتذة العالم عندما كان سلوكهم موجهاً بأصول ثقافتهم، وكانت المتغيرات والمبتكرات الثقافية في العالم نابعة منهم.

إنه ليس بخاف الآن أن الاتجاه التجريبي الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الأوروبية الحاضرة قد نشأ ابتداءً في الجامعات الإسلامية، مستمداً أصوله من التصور الإسلامي وتوجهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية، ومدخراته وأقواته. يقول بريفولت في كتابه «Making of Humanity»: «إن ما يدين به علمنا لعلم (العرب)»^(٧) ليس فيما قدموه إلينا من كشف مذهشة لنظريات مبتكرة فحسب، إنه مدين له بوجوده نفسه»^(٨).

لكن الذي حدث بعد ذلك أن أوروبا قد استقلت بهذا المنهج، ثم أخذت في عصر النهضة تنميه وثرقيته، بينما كان قد ترك وهجر نهائياً في العالم الإسلامي؛ بسبب بُعد هذا العالم تدريجياً عن عقيدته وتصوره الأساسي، بفعل عوامل كامنة في محيطه، وبفعل الكيد والمهجوم الصهيوني والصليبي عليه من خارجه.

ثم قطعت أوروبا بين المنهج الذي اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية، وشردت به نهائياً بعيداً عن الله؛ في أثناء شرودها عن الكنيسة التي كانت تستطيل على الناس - بهياً وعدواً - باسم الله!^(٩)

ومنذ ذلك الحين أصبح نتاج الفكر الأوروبي في جملة شيا آخر ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات الدين عامة، ومقومات التصور الإسلامي خاصة. ولذلك فإنه يجب على المسلم ألا يأخذ إلا من المصدر الرباني، وألا يرجع إلا إلى أصول هذا المصدر. وأن يعتمد في ذلك على نفسه إن استطاع، وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقي، يوثق في دينه وتقواه.

إن الأشكال والصور العملية والتطبيقية للثقافة الإسلامية تتغير ويجب أن تتغير - من آن لآخر ومن مكان لآخر. وتخضع عملية التغير الثقافي - في كمها وكيفها - لمدى تمسك المجتمع بالقيم والمبادئ الأصلية فيه. فالمجتمع الذي يؤمن باجتماعية القيم والنظم، واجتماعية الثقافة: عمومياتها وخصوصياتها ومتغيراتها، تحتاحه رياح التغير السريع المتلاحق، ويظل الإنسان فيه يلهث وراء المتغيرات، ولا يكاد يستقر إلى قرار. أما المجتمع الإسلامي الذي تقوم معايير الثقافة فيه على مجموعة النظم والقيم والأصول الإلهية الثابتة، فإنه عادة ما يتغير بسهولة، ودون مشقة، ودون انتقال من الضد إلى الضد، ومن النقيض إلى النقيض؛ لأن التغير يحدث وفقاً لمجموعة من النظم والقيم الإلهية الخالدة، التي وضعها الله لترقية حياة الإنسان في كل زمان ومكان.

والتغيرات هي كل الأفكار والمبتكرات أو المخترعات الجديدة على المجتمع سواء كانت نابعة من داخل المجتمع أم كانت وافدة عليه من الخارج. وهذه التغيرات تأخذ فترة اختبار، تطول أو تقصر، تبعاً لمدى أهميتها وحساسيتها. وهي تظل طوال فترة الاختبار في حالة قلق وتردد وحيرة. فإن ثبت أن ليس وراءها فلسفة ما، أو نظرة مغايرة لتصور الإسلام للوجود والكون، وتفسيره للسلوك الإنساني، ومفهومه لوظيفة الإنسان في الأرض، قُبلت وصارت جزئية من جزئيات الثقافة الإسلامية. أما إذا اختلفت أو تناقضت مع منهج الإسلام، أو مع أية جزئية من جزئياته، فإنها تُرفض وتُنبد إلى أن تضرر وتموت.

وهذه التغيرات هامة جداً، وخطرة جداً في مفهوم منهج التربية الإسلامية. أما أنها هامة جداً، فلأنها الباب المفتوح لترقية عمارة الأرض وفق منهج الله. فالابتكارات والاختراعات - مثلاً - من أهم وسائل رقي الحياة على وجه الأرض، وذلك إذا ما استخدمت نتائجها في خير الإنسان والبشرية جميعاً. لكن التغيرات خطيرة جداً أيضاً؛ لأن المسلمين إذا لم يكونوا واعين بها، وبالفلسفات والنظريات الكامنة خلفها، وبمدى اتفاقها أو تناقضها مع أصول الإسلام نصاً وروحاً، وإذا لم يكونوا قادرين على فهم وتحليل وتفسير وتقويم التغيرات وفقاً للمفاهيم الإسلامية، فإنها تعيد بهم لا محالة عن منهج الله، كما حدث في القرنين الماضيين.

وهنا تكمن القيمة الحقيقية لمنهج التربية الإسلامية الذي يُعد الإنسان المسلم كي يكون قادراً على النظر إلى الكون كله على أنه كتاب مفتوح ينهل منه، ويستعين بكل ما يساعده فيه على تحقيق غايته الكبرى، وهي عبادة الله، والقيام بحق استخلاف الله له في الأرض؛ بعمارته واستغلال طاقاته ومدخراته، وترقية الحياة فيها بالإبداع المادي، والاستمتاع بزيينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

وبعد، فهل بعد ذلك يمكن أن يوصم الإسلام بأنه ليست له ثقافة خاصة، أو أن ثقافته إغريقية في أساسها؟!



• الحضارة في التصور الإسلامي •

مفهوم الحضارة في التصور الإسلامي :

عندما يكون الجانب التطبيقي في الثقافة الإسلامية ترجمة عملية وواقعية صحيحة للجانب المعنوي فيها، مع استخدام كل معطيات الإنسان والزمان والمكان .. تكون الحضارة. إذن فالحضارة هي عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها : إنسانياً، وخلقياً، وعلمياً، وأدبياً، وفنياً، واجتماعياً، وفق منهج الله وشريعته.

وبناء على هذا المفهوم، فإن «المجتمع الإسلامي» - وهو المجتمع الذي يطبق شريعة الله في كل جوانب الحياة - هو وحده «المجتمع المتحضر». أما المجتمعات الأخرى التي تنكر وجود الله أصلاً، أو تجعل له ملكوت السماوات وتعزله عن ملكوت الأرض، أو لا تطبق شريعته في نظام الحياة ولا تُحكّم منهجه في حياة البشر، فهذه كلها مجتمعات جاهلية أو متخلفة^(١٠) لأنها لا تُدخّل في دين الله الذي حدده - سبحانه - في قوله : ﴿ إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه .. ذلك الدين القيم ﴾. (يوسف : ٤).

وقد أقسم سبحانه وتعالى بنفسه - كما يقول ابن القيم - على نفي الإيمان عن العباد حتى يُحكّموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكنف منهم بذلك حتى يسلموا تسليماً :^(١١) ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (النساء : ٦٥).

إن من أبرز سمات الحضارة في التصور الإسلامي هي - كما يقول الأستاذ محمد أسد - «ذاتية الحضارة الإسلامية»^(١٢) فالحضارة الإسلامية ليست ثمرة تقاليد متوارثة، ولا نتيجة تطورات وتيارات فكرية آتية من الماضي، وإنما هي انبعاث ذاتي مباشر من القرآن الكريم، ومن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن تطبيقهما تطبيقاً عملياً صحيحاً في واقع الحياة. أصول الحضارة في التصور الإسلامي :

فالحضارة الإسلامية - كما يقول الأستاذ سيد قطب - : يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، لكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة؛ لأنها هي مقومات هذه الحضارة. وهذه الأصول والمقومات هي :

١ - أن تكون الحاكمة العليا في المجتمع لشريعة الله.

- ٢ - أن تكون أسرة التجمع الأساسية في المجتمع هي العقيدة.
 - ٣ - أن تكون إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع.
 - ٤ - أن تكون الأسرة هي قاعدة البناء الاجتماعي.
 - ٥ - أن يقوم الإنسان بالخلافة في الأرض على أساس الإحسان في العمل.
- ونتناول هذه الأصول بشيء من التفصيل فيما يلي :

الأصل الأول : هو أن تكون الحاكمة في المجتمع لله؛ وبذلك يتحرر الإنسان فيه من العبودية لغير الله. «فحين تكون الحاكمة العليا في المجتمع لله وحده - متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية - تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر، وتكون هذه هي «الحضارة الإنسانية»، لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع .. ولا حرية - في الحقيقة - ولا كرامة للإنسان - مطلقاً في كل فرد من أفراد - في مجتمع بعضه أرباب يشرعون وبعضه عبيد يطيعون !» (١٣)

إن الشعور بالحرية والكرامة هو الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن في تصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص. وإفراد الله بالعبودية، ومن ثم - إفراده بالحاكمة يؤدي إلى الشعور بالاستعلاء، وهو شعور «ينبغي أن تستقر عليه نفس المؤمن إزاء كل شيء، وكل وضع، وكل قيمة، وكل أحد، الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المبتثقة من أصل غير أصل الإيمان» (١٤)

لقد تمثل الشعور بالاستعلاء .. استعلاء الإيمان في موقف ربيعي بن عامر عندما أرسله سعد بن أبي وقاص قبل موقعة القادسية رسولاً إلى رسم قائد الجيوش الفارسية وأميرها فدخل عليه، وقد جلس على سرير من ذهب، في مجلس مزين بالبخار والزراني، وكان رسم يتلأل في تاجه وبواقته الثمينة، دخل ربيعي بثياب صفيقة، وترس، وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل عليه سلاحه، فقالوا له : ضع سلاحك، فقال : إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتوني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رسم : اتذونا له، فأقبل يتوكأ على رمح فوق الخمار فخرق عامتها. «فقال له رسم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» (١٥)

إن هذا الشعور، الشعور بالحرية والكرامة، أو «استعلاء الإيمان»، لا يتأني إلا حين تكون

العبودية في المجتمع لله وحده، - ومن ثم - تكون الحاكمية فيه لله وحده .. عندئذ - فقط - يكون هذا المجتمع متحضراً.

أما المجتمع الذي تكون الحاكمية فيه لغير الله؛ فهو مجتمع جاهلي متخلف؛ إذ لا حرية حقيقية، ولا كرامة حقيقية للإنسان فيه؛ لأن بعضه أرباب يُشْرَعُونَ، وغالبيتهم عبيد يطيعون.

ويؤكد هذا المعنى الدكتور يوسف العش في بحثه عن روح الحضارة الإسلامية، إذ يقول : إن أبرز اختلاف بين مفهوم الحضارة في الفكر الإسلامي ومفهومها في الفكر الغربي يقوم على تفسير «التقدم». «فالغربي يرى التقدم مادياً خالصاً بينما يرى الإسلام أن التقدم معنوي ومادي، وأنه إنساني أصلاً، وتوحيدي أساساً. فكل تقدم في مفهوم الإسلام يجب أن يقوم على التحرر من عبودية غير الله، ومن عبادة ما سوى الله، فلا يؤمن بسلطان غير سلطانه. والأصل في الوجدانية هو التحرر من عبودية غير الله، ومن كل سلطان غير سلطان الله» (١٦).

الأصل الثاني : هو أن تمثل العقيدة رابطة التجمع الأساسية في المجتمع. وبذلك أيضاً يكون المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد المتحضر؛ لأن العقيدة - وحدها - تمثل رابطة التجمع الأساسية فيه. فالعقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الأبيض والأسود، والأحمر والأصفر، والعربي والفارسي، والرومي والحبشي. فسائر أجناس الأرض يجتمعون في أمة واحدة، ربها واحد هو الله، ومنهجها واحد لأنه من الله، والأثني فيها هو الأكرم عند الله. وبذلك فإن جنسية المسلم هي عقيدته التي تجعله عضواً في «الأمة الإسلامية».

والعقيدة هي الوطن؛ فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط في الله. إذن فالارتباط على أساس العقيدة هو الذي يجعل المسلم عضواً - أيضاً - في «دار الإسلام».

إنه لا قرابة للمسلم إلا تلك التي تنبثق من العقيدة في الله فتصل الوشيعة بينه وبين أهله في الله. إنه على أساس من العقيدة، طرد الإسلام أبا لب - عم الرسول العربي، القرشي الهاشمي - من «الجنسية الإسلامية» - كما يقول الشيخ علي الضطواوي - بل وجعل سببه عبادة، وشتمه صلاة : «تبت يدا أبي لب وتب» . وعلى العكس من ذلك نجد الرسول - عليه الصلاة والسلام - يضم عبداً فارسياً، غير عربي - لا إلى الإسلام فقط، بل إلى بيت النبوة، فيقول : «سلمان من أهل البيت» (١٧).

وعلى أساس العقيدة يفرق الإسلام بين نوح ولوط وامرأتهما : «ضرب الله مثلا للذين

كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ (التحریم : ١٠).

والعكس يحدث مع امرأة فرعون :

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة، ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين﴾ (التحریم : ١١).

أما وشائج اللحم والدم والأرض والطين، كالجنس واللون، والقومية والقرابة، والإقليمية .. الخ فإن الإسلام يرفع الإنسان عن مستواها. والرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول للمهاجرين والأنصار : «دعوها فإنها منتنة».

إذن، فالأصرة واحدة وهي «العقيدة»، إذا انعقدت فالمسلم عضو في «الأمة الإسلامية»، وعضو في «دار الإسلام»، والمؤمنون كلهم «إخوة»، ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر : «إنما المؤمنون إخوة .. بالتوكيد والتفصيل. ولا ولاية لأحد عليهم من خارجهم، بل بعضهم أولياء بعض : ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا ونصروا بعضهم أولياء بعض﴾ (الأنفال : ٧٢).

إن التاريخ الإسلامي يذكرنا أنه حين انعقدت أصرة العقيدة في نفوس المسلمين، غطمت انفجارات الصليبية عليهم. فالقواد الذين نسوا وشائج اللحم والدم والأرض والقوم قادوا المسلمين إلى النصر، ومنهم صلاح الدين وتوران شاه والظاهر بيبرس وسيف الدين قطز وغيرهم وغيرهم. إن هذه القيادات نسبت القوم والأرض وتمسكت بالعقيدة، فانتصرت تحت راية «لا إله إلا الله».

ولأصرة التجمع الأساسية في المجتمع الإسلامي حكمة «ربانية» بالغة، ومن ثم، فهي «عقلية» و «علمية» ! يقول الأستاذ سيد قطب : حين تكون أصرة التجمع الأساسية في مجتمع ما هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، يكون ذلك ممثلاً لأعلى ما في إنسانية الإنسان من خصائص. أما حين تكون أصرة التجمع في مجتمع هي الجنس واللون والقوم والأرض .. وما إلى ذلك من روابط، فإن هذه الروابط كلها لا تمثل الخصائص العليا للإنسان، وذلك لسببين حاسمين : السبب الأول هو أن الإنسان يبقى إنساناً بعد الجنس واللون والقوم والأرض، لكنه لا يبقى إنساناً بعد العقيدة، والفكرة، وحرية الإرادة ! (١٨)

والسبب الثاني هو أن الإنسان يملك بمحض إرادته الحرية - أن يغير عقيدته وتصوره وفكره، ومنهج حياته - فهذه مزايها شخصية يستطيع من شاء اكتسابها - كما يقول الشيخ علي

الطنطاوي^(١٩) ولكنه لا يملك أن يغير لونه ولا جنسه، كما أنه لا يملك أن يحدد مولده في قوم ولا في أرض.

والخلاصة أن «المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بأرادتهم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر .. أما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية، فهو المجتمع المتخلف ... أو بالمصطلح الإسلامي ... هو «المجتمع الجاهلي»!^(٢٠)

وإذا ما طبقنا هذه القاعدة على النظام في المجتمع نجد ما يلي :

بالنسبة للرأسمالية، لقد أقامت المجتمعات الرأسمالية امبراطوريات على أساس قومي، وجنسي، وجغرافي، فكانت النتيجة أن ساد الاحتكار والاستغلال والإذلال لإنسانية الإنسان على يد الامبراطوريات القديمة والحديثة.

أما الشيوعية فإنها ترمي إلى إقامة مجتمع على أساس روابط أخرى تتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللون واللغة، لكنها لم تحاول أن تقيمه على قاعدة «إلهية»، أو حتى «إنسانية» عامة، بل بدلاً من ذلك تحاول إقامته على قاعدة طبقة «البروليتاريا»، فجاءت صورة هذا التجمع وجهاً آخر للتجمع الروماني القديم الذي كان يقوم على قاعدة طبقة «الأشراف». والنتيجة أن هذا التجمع لا يبرز إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني، وهو الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى، بينما اختفت إرادة الإنسان في التغير وحرية في عمارة الأرض وترقية الحياة على وجهها.

والوضع في الإسلام على العكس من ذلك تماماً. فلقد كان من النتائج الباهرة لإقامة المجتمع على أسيرة العقيدة القائمة على الإرادة الحرة والاختيار الحر للإنسان، - أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات، فانصهرت في بوتقته خصائص الأجناس البشرية وكفائاتها وطاقاتها، وأخرجت حضارة إنسانية رائعة، تحوي خلاصة الطاقات البشرية في زمانها مجتمعة. « ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوماً ما «عربية»، وإنما كانت دائماً «إسلامية» ولم تكن يوماً ما «قومية»، إنما كانت دائماً «عقيدية».^(٢١)

الأصل الثالث : من أصول ومقومات الحضارة الإسلامية هو أن تكون «إنسانية» الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع، وأن تكون الخصائص «الإنسانية» فيه هي موضع التكريم والاعتبار، نعتنئذ يكون المجتمع متحضرأ. أما «حين تكون «المادة» - في أية صورة - هي القيمة العليا .. سواء في صورة «النظرية» كما في التفسير الماركسي للتاريخ ! أو في صورة الإنتاج المادي كما في .. سائر المجتمعات التي تعتبر الإنتاج المادي قيمة تُهدر في سبيلها القيم والخصائص

الإنسانية .. فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً متخلفاً^(٢٢) مهما بلغت درجة تقدمه العلمي والاقتصادي والصناعي.

لكن المجتمع المتحضر الإسلامي لا يحقر المادة - كما يقول الأستاذ سيد قطب -، ولكنه فقط لا يعتبرها القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص «الإنسان» ومقوماته ! .. وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته. وتهدر فيها قاعدة «الأسرة» ومقوماتها، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرمانه ... إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمان لتحقيق الوفرة في الإنتاج المادي^(٢٣).

إن المجتمع المتحضر هو الذي تكون «القيم الإنسانية» و«الأخلاق الإنسانية» التي تقوم عليها، هي السائدة فيه. وهذه القيم هي التي تسمى خصائص إنسانية الإنسان، وهي التي تميزه عن غيره من المخلوقات. وهذه القيم في المجتمع الإسلامي ثابتة، وليست متغيرة كما هو الحال عند التطورين وأصحاب التفسير المادي للتاريخ. فهي ليست وليدة البيئة، ولا تختلف باختلاف البيئات الزراعية والصناعية والرأسمالية والاشتراكية ... الخ، وإنما هي قيم إنسانية ذات ميزان ثابت، وهي مقررّة في الشريعة الإسلامية منذ جاءت، وما على الإنسان إلا أن يحمي في بنائها وصيانتها في كل المجتمعات التي يقيمها : حضرية كانت أم بدوية، صناعية كانت أم زراعية، فالهمم - في كل الأحوال - هو الارتقاء صعداً بالخصائص الإنسانية وحراستها من التآكل إلى الحيوانية التي تؤدي إلى التخلف أو الجاهلية.

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم وبهذه الأخلاق في كل مكان وفي كل بيئة. أما أشكالها وصورها المادية فهي كثيرة ومتنوعة؛ لأنها في كل بيئة تستخدم المقدرات والمعطيات الموجودة بها فعلاً، وتسميها وفقاً لميزان الله الثابت، وقيم الإنسان المقررة في شريعة الله.

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشئ الحضارة المناسبة لهذا المجتمع. حيث ينتقل الناس من عبادة غير الله إلى عبادة الله وحده، وتكسي أجسامهم العارية وفقاً لتوجيه الله، وينتقلون من الحمول والبلادة إلى النشاط والعمل الموجه لاستغلال كنوز الأرض وخيراتها، ويخرجون من طور القبيلة أو العشيرة إلى طور «الأمة الإسلامية»، ومن وشيجة الأرض والطين إلى وشيجة العقيدة والدين، ومن طور الأمية والجهل إلى طور العلم وإعمال العقل. هذه هي الحضارة الخاصة بهم.

وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعياً أو زراعياً أو غير ذلك، فإنه يستخدم كل ما لديها من معطيات، ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً مما لديها. وهكذا يقيم المجتمع الإسلامي أشكالاً مختلفة ومتنوعة من الحضارات بناء على قيمه الثابتة، وأصوله المستقلة، بحيث يبقى للمجتمع طابعه الخاص، وميزته الفريدة النابعة من أصله الرباني، وصيغته الإنسانية^(٢٤).

إن هذه الصيغة الإنسانية النابعة من العقيدة الإسلامية هي التي تفسر لنا اجتياح الإسلام لفكر الامبراطوريات التي فتحها، وثقافتها، وعاداتها وتقاليدها، وصياغتها صياغة جديدة، حتى لكان الثقافات والموروثات المعبرة التي كانت بها لم تكن - كما يقول الأستاذ أنور الجندى^(٢٥).

إن أهم خصائص الحضارة الإسلامية على الإطلاق هي إيصال العقيدة الإسلامية والقيم الإنسانية النابعة منها بالنظام الاجتماعي القائم عليها. فالفصل بينهما يؤدي إلى سقوط الأخلاق، الذي يؤدي - بدوره - إلى تحلل النسيج الاجتماعي، وضعفه .. وموته، مهما كانت القوة الاقتصادية أو العسكرية السائدة في هذا المجتمع.

إن التخلف الحقيقي - في مفهوم المجتمع المتحضر الإسلامي - هو تحويل منجزات العلم الخائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط. وتسخير إمكانيات العلم غير المحدودة في نشر الفوضى والعادات غير الأخلاقية، بدلا من استخدامها في إعلاء القيم الإنسانية، وفي خدمة الإنسان دون بغي أو ظلم أو تحكم أو إبادة.

إن مهمة العلم - في مفهوم المجتمع المتحضر الإسلامي - ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها، بل التلطف مع الطبيعة، والجد في اكتشاف قوانين الله فيها؛ فالطبيعة ما خلقها الله لتقهر، بل لاستخراج خيراتها ومكوناتها التي أودعها الله فيها، وجعلها مسخرة لخدمة الإنسان، المسخر له الأرض وما فيها، والمحسوب حسابه في تصميم هذا الكون قبل أن يكون : ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه ﴾ (الجن: ١٣)، ﴿ وألقى في الأرض وواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسلأ لعلكم تتدون ﴾ (النحل: ١٥)، ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض، والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه ؟ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ (الحج: ٦٥).

الأصل الرابع : هو أن تكون الأسرة هي قاعدة البناء الاجتماعي، وأن تقوم على أساس

«التخصص» بين الزوجين في العمل، وأن تكون رعاية الجليل الناشيء هي أهم وظائف الأسرة. فالمجتمع الذي هذا شأنه هو المجتمع المنحضر .. ذلك أن الأسرة على هذا النحو - في ظل المنهج الإسلامي - كما يقول الأستاذ سيد قطب - «تكون هي البيئة التي تنشأ وتنتشى فيها القيم والأخلاق» الإنسانية - ممثلة في الجليل الناشيء، والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة. فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها) والنسل (غير الشرعي) هو قاعدة المجتمع .. حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال، لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الأسرة .. حين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة .. وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الجليل الجديد، وتؤثر هي - أو يؤثر لها المجتمع - [أن تكون عاملة في أي مكان، بالنهار أو بالليل] .. حين تنفق طاقتها في «الإنتاج المادي» و «صناعة الأدوات»، ولا تنفقها في «صناعة الإنسانية» ! لأن الإنتاج المادي يومتد أغلى وأعز وأكرم من «الإنتاج الإنساني»، عندئذ يكون هذا هو «التخلف الحضاري» بالقياس الإنساني .. أو تكون هي الجاهلية بالمصطلح الإسلامي! (٢٦)

إذن فالتخصص الوظيفي في الأسرة - التي تقوم بـ «صناعة الإنسانية» - هو الأساس في المجتمع المنحضر الإسلامي.

لقد شابت فطرة الله أن يكون ميدان إنشاء العنصر الإنساني وتنشئته، هو ميدان عمل المرأة بالدرجة الأولى. ويقارن الشيخ محمد متولي الشعراوي بين ميدان عمل المرأة هذا وبين ميدان عمل الرجل خارج البيت. ويرى أن ميدان عمل المرأة أهم وأدق من ميدان عمل الرجل؛ لأن الرجل - بحكم عمله خارج البيت - إنما يتعامل مع «أشياء» هي كلها مسخرة لخدمة الإنسان، الذي هو أكرم ما في الوجود كله. أما المرأة فمهمتها هي التعامل مع هذا المخلوق الراقى، الكريم على الله، وهو الإنسان. تتعامل معه كزوج فيسكن إليها، وتتعامل معه جنيهاً في بطنها، ووليداً في حضنها، ورضيعاً تغذيه وتحنو عليه، وطفلاً، وصبيّاً، وشاباً تربيته وترعاه وتضرب له المثل. (٢٧)

إن ترك المرأة لهذا الميدان الذي هو مجال عملها الرئيسي، - والذي خلقها الله وفطرها لتحسن الأداء فيه - إلى ميدان آخر هو مأساة بكل المقاييس. يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: إن «المجتمع الذي يتزاحم فيه الرجال والنساء على عمل واحد في المصانع والأسواق. لن يكون مجتمعاً صالحاً، مستقيماً على سواء الفطرة، مستجمعاً لأسباب الرضى والاستقرار بين بناته وبنيه؛ لأنه مجتمع يندر جهوده تثير السرف والخطل، على غير طائل، ويختل فيه

نظام العمل والسوق، كما يختلف فيه نظام الأسرة والبيت.

«فالمرأة لم تزود بالعطف والحنان والرفق بالطفولة، والقدرة على فهمها وإفهامها، والسهرة على رعايتها في أطوارها الأولى لتتجر البيت، وتلقي بنفسها في غمار الأسواق والدكاكين .. وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأنًا، ولا بأخطر عاقبة، من سياسة البيت؛ لأنهما عالمان متقابلان : عالم المراك والجهد، يقابله عالم السكينة والاطمئنان؛ وتدير الجيل الحاضر، يقابله تدبير الجيل المقبل ... وكلاهما في الزوم وجلالة الخطر سواء» (٢٨)

وإذا كان ميدان المرأة الحقيقي هو البيت بمن فيه وما فيه، فإن تركها لهذا الميدان وخروجها للعمل في المجتمع الخارجي على اتساعه يعد تخريباً للميدان الحقيقي الذي تركته، وللميدان الجديد الذي لم تعد له بالفطرة والاستعداد والدرية. «ولولا مركب النقص، لكان للمرأة فخر بملكته البيت، وتنشئة (المستقبل) فيه، لا يقل عن فخر الرجل بسياسة (الحاضر)، وحسن القيام على مشكلات المجتمع التي تحتاج إلى الجهد والكفاح. وهي لو رجعت إلى سليقتها، لأحسّت أن زهوها بالأمومة، أغلّ لديها، وألصق بطبعها من الزهو بولاية الحكم ورئاسة الديوان - فليس في العواطف الإنسانية شعور بملاّ قلب المرأة، كما يملؤه الشعور بالتوفيق في الزواج، والتوفيق في إتمام البنين الصالحين، والبنات الصالحات ..» (٢٩)

إذن فقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين، قضية حاسمة - كما يقول الأستاذ سيد قطب في تحديد صفة المجتمع ... فاجتمعات التي تسود فيها التزعات الحيوانية لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التفوق الصناعي والاقتصادي والعلمي (٣٠).

إن هذه المجتمعات متخلفة أو جاهلية .. من وجهة نظر «الإسلام»، وبمقياس خط التقدم «الإنساني»، مهما كانت درجة تفوقها العلمي أو الاقتصادي.

والخلاصة أن الإسلام هو الحضارة، والمجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر، لأنه يؤمن أن إعداد جيل يترقى في خصائص «الإنسانية» ويتعد عن خصائص «الحيوانية» لا يمكن أن يتم إلا في محض «أسرة» قائمة على أساس الواجب والتخصص، ومحوطة بضمانات الأمن والاستقرار العائلي، فهذا ما يوفر للمجتمع مقومات الترقى على خط التقدم الإنساني. ولذلك جعل الله الزوجة شق النفس، ومحض السكينة والأمن والاستقرار، فهذا هو المحض «الإنساني» الوحيد الذي يعد الأجيال التي تسير صعداً على خط التقدم الإنساني، قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة؛ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (الروم : ٢١).

الأصل الخامس، هو أن يقوم الإنسان بالخلقة في الأرض على أساس الإحسان في العمل. ولكن ما المقصود بالعمل في التصور الإسلامي ؟ العمل صورة من صور «العبادة»، وينضج ذلك من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ﴾ (الكهف : ٣٠). فالخضارة في التصور الإسلامي لا تقوم على مجرد العمل، بل تتطلب ضرورة «الإحسان في العمل».

والإحسان في العمل ذو شقين : الشق الأول هو استخدام أقصى درجات المهارة والإنفاق فيه. يؤكد هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه». ولكن هل يكفي الإنفاق في العمل والمهارة في أدائه لبناء حضارة حقيقية ؟ الإجابة الصحيحة، هي أن ذلك بالتأكيد لا يكفي. وهنا نصل إلى الشق الثاني لمعنى «الإحسان في العمل»، وهو التوجه بالعمل إلى الله. فالعمل عبادة، والإحسان في العمل مرتبط بمفهوم «الإحسان» في التصور الإسلامي، وهو «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». إذن فالإنسان المتحضر واجتماع المتحضر هو الذي يؤدي العمل بأقصى درجات المهارة والإنفاق، مع مراعاة الله في أدائه؛ فالعامل المتحضر المسلم يرى الله في عمله، أو يؤمن بأن الله يراه.

والأصل في هذا هو أن الإنسان خليفة الله في الأرض، والعمل من أهم وسائل الإنسان لتحقيق مقتضيات الخلافة، ألا وهي عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله. إذن فالعمل إنما هو خير الإنسان والإنسانية جمعاء.

لكن المؤكد هو أنه لا ضمان على الإخلاص أن يؤدي الإنفاق في العمل، وأن تؤدي المهارة فيه إلى هذه الغاية، إذا انقطعت صلة العامل بالله، فالإنسان المقطوع الصلة بالله، لن يراعي في عمله وفي نتائج عمله إلا ما يراه من مصالحه المباشرة، ومصالح الأولياء عليه، مهما كانت الوسائل، ومهما ترتب على ذلك من دمار لمصالح الآخرين !

وعليه، فإن وفرة الإنتاج وحده، أو الإبداع المادي وحده، لا يسى في الإسلام حضارة. فقد يكون، ويكون معه التخلف، وتكون معه الجاهلية : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ؟ ! وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ! وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعِیُونَ، إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ (الشعراء : ١٢٨ - ١٣٥).

خاتمة :

والخلاصة هي أن الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي مرتبطتان ارتباطاً عضوياً. فعندما يكون الجانب العمل للثقافة تطبيقاً واقعياً وعملياً صحيحاً للجانب المعاري فيها، مع استخدام كل معطيات الإنسان والزمان والمكان ... تكون الحضارة. فالحضارة - كما سبق أن قلنا - هي عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها : إنسانياً وخلقياً وعلمياً وأدبياً واجتماعياً، وفق منهج الله وشريعته.

وعندما يصل المجتمع المتحضر الإسلامي إلى هذه الدرجة، ويظل متمسكاً بمقومات حضارته وهي : إفراد الله بالعبودية - ومن ثم - إفراده بالحاكمية، واعتبار العقيدة هي أصرة التجمع الرئيسية، واعتبار إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع، واعتبار الأسرة هي قاعدة البناء الاجتماعي، وقيام الإنسان بالخلافة في الأرض على أساس الإحسان في العمل ... عندئذ يتبوأ المجتمع المتحضر الإسلامي مكانته اللاتفة به في تربية الإنسانية وقيادتها إلى الحق والعدل الأزليين الكامنين في بنية الكون، ولي فطرة الإنسان :

﴿ ولو أن أهل القراء آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض .. ﴾ (الأعراف : ٩٦).

المواصلة

- (١) سيد قطب : معالم في الطريق، الطبعة العاشرة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ص ١٣٥ - ١٣٦.
- (٢) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الطبعة السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، ص ١١٤.
- (٣) محمد أسد : الطريق إلى الإسلام، نقله عنه أنور الجندي في : أحطاء الشيخ العربي الوافد، بيروت، دار الكتاب اللبناني، رقم (٦)، ص ٢٤٢.
- (٤) انظر : رشدي أحمد طعيمة : «الغيمات الأجنبية نحو الثقافة العربية الإسلامية» في دراسات نوبوية، ج ٣، يونيو ١٩٨٦ م، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.
- (٥) المقصود بالعلوم البحتة هنا، الرياضيات والضعف، والكيمياء، والجوانب الفنية لعلوم الصناعة، والزراعة والإدارة.

- (٦) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام، الطبعة التاسعة، بيروت، دار الشروق، ١٩٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ص ٢٠٢.
- (٧) من الملاحظ جداً أنه حتى المتصفين من المفكرين الغربيين لا ينسبون أي تقدم «للمسلمين» وإنما «لغريب» فهم لا يحون استخدام كلمة «إسلام» أو «مسلمين» !
- (٨) عن نص ثويني في كتابه «الحضارة في فترة اختبار» نقله عنه أنور الجندي، في إعطاء الشبح الغربي الوافد، ص ٧، ٨، ٢٣٣.
- (٩) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠٢.
- (١٠) سيد قطب : معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١١٦-١١٧.
- (١١) ابن القيم : أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل، ج ١، ص ٥٩.
- (١٢) النظر : محمد أسد : الطريق إلى الإسلام، مرجع سابق.
- (١٣) سيد قطب : معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١١٨، ١١٩.
- (١٤) المرجع السابق، ١٧٨.
- (١٥) المرجع السابق، ١٨٣.
- (١٦) نقل عن أنور الجندي، مرجع سابق، ص ٢٣٩.
- (١٧) الشيخ علي طططاوي : «سؤوا صوفوكم، الشرق الأوسط، العدد رقم ٣٢٩٩، في ١٠/١٢/١٩٨٧ م، ص ١٠.
- (١٨) سيد قطب : معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٥٣.
- (١٩) علي الطططاوي : مرجع سابق.
- (٢٠) سيد قطب : معالم في الطريق، ص ١١٩، ١٢٠.
- (٢١) المرجع السابق، ص ٥٩ - ٦٠.
- (٢٢) المرجع السابق، ص ١٢١.
- (٢٣) المرجع السابق.
- (٢٤) المرجع السابق، ص ١٣١، ص ١٣٣.
- (٢٥) أنور الجندي، مرجع سابق، ص ٢٢٧.
- (٢٦) سيد قطب : معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٢٣ - ١٢٤.
- (٢٧) عبد الغني عيود : الأسرة السليمة والأسرة المعاصرة، الكتاب الثامن من سلسلة الإسلام ونهديات العصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٩، ص ١٤٣.
- (٢٨) عباس محمود عقدا : المرأة في القرآن، القاهرة، دار الإسلام، ١٩٧٣ م، ص ٤٦ - ٤٧.
- (٢٩) المرجع السابق، ص ٤٧.
- (٣٠) سيد قطب، معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٢٤.